

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

— — — — —

(تابع)

(ج) ومن المؤثرات في الأدب الحرية :

وإنما يترعرع الأدب في ظلال الحرية ، فإذا منع البني أمة أو طائفة أن تُبين عن آرائها وعواطفها وتعرب عن آلامها وآمالها ، لا يزدهر فيها الأدب

وإذا اشتد الحجر على أمة فانبرى جماعة من أبائها يجاهدون في حريتها ويجالدون جبايتها لم يكن لهم بد أن يتخذوا الأدب القوي لبث الدعوة وإيقاظ النفوس وتغييرها من المذلة وحفزها إلى الإقدام ومجادلة الخصم بالحجة البالغة والبرهان الدامغ ، فينشأ لهم أدب حى قوى . ولا يزالون في جهادهم حتى يدال لهم قسح الحرية الأمة كلها ، وتنشط النفوس للإبانة عن سرورها والإعراب عما في ضمائرهما . وأدب المجاهدين في كل عصر من

وهذه قصيدة أخرى بعنوان « مولد » للشاعر الكبير جيوفاني باسكوالى استوقفنى ما فيها من عاطفة فياضة وروعة فأثرت نقلها إلى العربية أيضاً

مولد

تلاتون عاماً تتالت منذ ولدتى يا أماء ، منذ آلتك أولى شهقاتى الضعيفة بأكثر من أوجاعك الشديدة الفائرة

وغدبتى من ثديك التفجرين حناناً وأنت صبور تساورك المخاوف والأشجان ، حتى إذا تكامل الحى من لحك ودى من دمك فاستقر قلبك بأكله فى قلبى ، جاء اليوم الذى تواريت فيه منذ عشرين عاماً

وهأنذا أحاول عبثاً أن أجسم عينيك وسبائك لأشاهدك بخيالى . لقد أذبل الزمان ناضر تذكارى فلم أعد أعرفك يا أماء ! أما أنت فلا تزالين حيث يستقر الأموات فى مرابع الصقيع تستوقفين أحلامك لتداعب أناملك غدائر طفلك الصغير

(الاسكندرية) فيليكس فارس

أروع أنواع الأدب لأنه أدب النفس الإنسانية وهي تدفع عن كيائها ، وتجادل عن حياتها

فالحرية العامة والجهاد لها من أجدى الأمور على الأدب

وإذا نظرنا إلى الأدب فى فرنسا قبل الثورة وأثناءها وبعدها ، وإلى الأدب فى تركيا قبل مائة سنة والأدب فيها حين الجهاد للحرية كشمس نامق كمال وأمثاله ، ثم الأدب فى الثلاثين سنة الأخيرة ؛ وإذا نظرنا أيضاً إلى الأدب فى مصر قبل عشرين سنة وإلى الأدب فيها اليوم عرفنا فرق ما بين الحرية والعبودية ، وما يجدى الجهاد للحرية على آداب الأمم .

وكم أنتج جدال الأحزاب السياسية من خطب ومقالات لها فى الأدب أثر لا ينكر

والحرية الفكرية أوسع من الحرية السياسية فرمما تنال الأمة حريتها السياسية ولكن يسيطر عليها أو على فرقة منها مذهب أو عادة قديمة فيمنعها بعض حريتها فى التفكير ، وانظر إلى المعتزلة والخنابلة فى تاريخ السلمين تدرك كيف أجدت على الأدب حرية الأولين ، وجنت عليه عصية الآخرين . وكذلك التزام موضوع أو أسلوب فى الأدب اتباعاً للقضاء يسلب الأمة بعض حريتها الأدبية ويمنعها أن تفتن فى موضوعات النظم والنثر وأساليبها

على أن الفوضى فى الأدب ، وركوب كل إنسان رأسه على غير بينة ، وحيد الناشئين عن سنن الأئمة دون بصيرة — تجنى على الأدب ، ما يجنيه التضيق والحجر ، أو شرأ من ذلك

(د) الحروب :

الزراع بين فريقين يهيج كل ما عندهما من قوى نفسية ومادية ؛ وكلما كان الخطر أعظم كان الاهتمام والإعداد أكبر . وفى الحروب تتعرض النفوس والأموال والأوطان للهلكة فتثور أقسى ما فى الإنسان من غريزة وأسمى ما فيه من عاطفة . فتدعو كل أمة أحزابها وتعرضهم على قتال العدو ؛ وإذا أتىح لها الظفر عظمت أفعالها ، وأكبرت مآثر أبطالها ، وفى هذا الإعداد للقتال والتحريض عليه والتفنى بالظفر والإشادة بالبطولة مجال واسع للأدب ومن أروع ما أنتجت الآداب القصص الحاسية : فالهاجرات والإلياذة والشاهنامة والقصائد الحاسية فى الشعر العربى الجاهلى

الحيرة كان رائد خير في الأدب ، وكان قد سن سنة حسنة لا تزال تزيد في إحسانه على كرا الأيام كما فعل ابن المقفع والملاحظ وأبو العلاء ؛ وإن سلك سبيلاً وعمره وخلق أساليب مستنمعة متكلفة قد غطى نبوغه على عيوبها سار الناس وراءه . وربما ورثوا عيوبه دون مزايده ، وأورثوا الأدب صنوفاً من القيود تضيّق الأدب وتميت الابتكار في نفوس المنشئين كما فعل مسلم وأبو تمام في البديع ، وأبو العلاء في التزام ما لا يلزم ، والحريزي في المقامات ، وغير هؤلاء في ضروب المحسنات التي شغلت الشعراء والكتاب عن المغانق بصناعة الألفاظ .

وكثيراً ما يخلق التقليد رجلاً في غير عصره . كما نجد اليوم من يقلد أحد النابغين القدماء فيشبه هذا القديم أكثر ما يشبه معاصريه . وكثيراً ما أحيا التقليد الأدب بعد موته . فتقليد القدماء من أدبائنا كان فائحة نهضتنا الأدبية الحديثة كما كان تقليد اليونان والرومان باعث الأدب الأوربي في عصر النهضة . فقد تخلى البارودي — مثلاً — الأجيال وحاكي الجاهليين والإسلاميين قأتي بنمط من الشعر الجزل هو خير مما كان معروفاً في وقته ، وقبل وقته . فكان طليعة الشعراء المصريين .

(ز) والاستطراف

ومما يؤثر في الأدب أيضاً الاستطراف أو حُب التجديد ، والنزوع إلى الطريف . ففي الأدب كما في غيره طرائف (مودات) . يعمل الأديب موضوعاً مبتدلاً ، أو طريقاً مسلوكة قد سار عليها الخاصة والعامة ، ويأتف أن يكون واحداً في هذا السواد فيسلك طريقاً آخر في الموضوع أو البيان ؛ فإن وفق قد سنّ للأدباء سنة جديدة ، ومهد في الأدب سبيلاً محدثة . وهكذا حتى يظهر أديب آخر يحمل هذه الطريقة فيجيد عنها وهم جراً . وقد يستطرن بعد أجيال موضوع أو أسلوب بعد أن ابتدل وهم جراً . فهذا الاستطراف والاستهجان له أيضاً أثره في تحوّل الأدب

(ح) النقد :

وأحسن المؤثرات في الأدب وأنعمها النقد الصحيح ؛ فإن الناس يسرون على النهج المألوف لا يرون خطأ ولا يصرون عليه حتى يرشدهم النقاد فيبينوا لهم الخطأ والصواب ، والرشد

والإسلامي ولا سيما صدر أبي العباس التي ، وقصة عمرة وقصص أبي زيد الهلالي وغيرها كل هذا من آثار الحرب وما أثر الأبطال فيها (هـ) الدين :

والدين له على الفنون سيطرة عظيمة ، فهو يستولى على العقل والمحافظة فيسيرها كما يشاء ، ويسبح كثيراً من نتائج الأدب بصفته . ولعل أروع أبنية العالم وأبقاها على العصور المعابد ؛ فحينما سار الإنسان على وجه الأرض وجد علوم الأمم وفنونها وعواطفها ممثلة في المساجد والكنائس والمعابد الأخرى

والأدب الديني من أقدم آثار الأمم الأدبية . فكتاب الموقى عند قدماء المصريين ، وأناشيد فيدا عند الهند ، وسفر أيوب في التوراة ، وأناشيد جانا في كتاب زرادشت الذي يسمى الأستا ؛ كل أولئك من آثار الدين في الأدب . وإذا نظرنا إلى الدين الإسلامي ونصرونا ما أحدثه القرآن في الأدب العربي والآداب الإسلامية عامة ، وما يحدته اليوم ، عرفنا مبلغ تأثير الدين في الأدب ، وتصور ما أنتج الإسلام من خطب ومواعظ وقصص في العصور المتطاولة لتعرف جانباً من تأثيره . ثم هذا الشعر الصوفي الرائع في الآداب الإسلامية — ولا سيما الفارسية — نفحة من نفحات الدين

(و) المحاكاة :

ومما يؤثر في الأدب المحاكاة والتقليد — تقليد أمة آداب أمة كما قلد الرومان والأوربيون أدب اليونان ، وقلد الفرس والترك وغيرهم الأدب العربي ، وقلد الترك والهند الأدب الفارسي ، وكما قلد الترك في العصر الحديث الأدب الفرنسي وقلد المصريون الآداب الأوربية

وكذلك تقليد النابغين في الأمة الواحدة ؛ فإذا نبغ شاعر أو كاتب حاكاه معاصروه ، ثم لم يعدم مقلداً في كل عصر . ويكاد تاريخ الأدب يكون تاريخ النابغين في العصور المختلفة ومن عداهم مقلدون أو كالمقلدين . فالملاحظ ، وابن المقفع ، وبديع الزمان ، وأبو تمام ، والمتنبي ، لهم تأثير بين في الأدب العربي حتى عصرنا هذا فإن فتح النابغة للناس فنوناً من الأدب الجيد ، والأساليب

الدعوات المستجابة ...

لشاعرة أمير هوريدر ولكس

للآنسة الفاضلة « الزهرة »



استنحتُ الثروة ، فُدَّتْ لي أكنافُ التوفيق ، وأسبغتُ
على آلاء النوال الطائفة ، وتحول كل ما لمسته يداي إلى ذهب
إبريز ... ولكن ... واحترته لقد تضاعفت همومي ومتاعبي ،
وتناقصت راحتي ورفاهيتي ، حين فليج مهم طلبي ، وزكمنتُ
رجائي ، وأخصب زرع أبتالي ...



استوكفتُ المجد والعز ، فسمت ذكري يشيع بالحد ، وبذيل
بالتناء ، من الولدان الروقة اليامين ، الذي لحظهم الفلك بنياته ،
ووسمهم الكمال بنهايته ؛ ومن الشيب السارين في طريق الرشد ،
بمصباح الكبر ، التحلين بأبهة الحنكة وشيمة الوقار ، الجامعين
بين قوة الشباب واستحكام التهذيب والتحليم وتناهي الخلال .
ولكن ... أواه ! أواه من الآلام والخسار والمضار التي تجي
في مواكب الشهرة . حقاً ، إنني لم أكن سعيدة إذ ذاك ...



اجتديتُ الحب ، وركبتُ إليه ظهور التوسل والضراعة ،
فغاز قلبى بمبتغاه ، واغتبط بنجيج سعاد ، وعاد بمصدق أمانيه ،
ولكن لب نيران الحب الآكلة اندلج إلى قلبى المتضور ، وجسى
المهوك . وتلذع أوراها في عقل التلظى . بيد أنها قد كبت ،
ولم يبق منها إلا ما غادرت في القلب والجسم والعقل جيماً ، من
وسوم لمجها وسفمات حروقها ...



انصلتُ يبابه تعالى ، ونزعتُ إليه رجائي ، أن يمنحني عقلاً
راضياً قائماً ... وأخيراً ! بزغ على قنار روعي المكتئبة نور
عظيم ، وغمرني أمن تام ، واطمئنان كامل . ووردت على قوة
جلي استأنفت نشاطي ، وشدت عزمي ، وشرحت صدري .
فياليتني كنتُ التمت هذه الطلبة الغالية قبل كل طلبة أخرى .
(الزهرة)

والتي ، والحسن والقيح في سيرتهم . وإذا تناول النقد مسألة
أدبية كشف عن الحق فيها أو ثار حولها الجدل ؛ وما يزال
التجادلون حتى تنجلي الحقيقة من تصادم الحجج . فالتقد إيقاظ
الأفكار الناعمة ، وتنبيه الآراء الغافلة ، ومثار جدال تبيين فيه
الحقائق إذا صحبه الإخلاص وقاربه الصدق

(ط) المكافأة :

وتحريض أصحاب المواهب على الإنتاج بالاعتراف بفضلتهم
والإشادة بأعمالهم أو منحهم الأموال التي تعينهم على الفراغ
للأدب وإتقانه ، مما أجدى على الأدب في عصوره ، وحفزهم
الشراء والكتاب إلى الإجابة والإبداع ؛ ولذلك نرى تاريخ
الأدب وكبار الأدباء متصلًا بالملوك والأمراء والكبراء الذين
أنابوا القائلين على إحسانهم وحشومهم على الازدياد

وإذا نظرنا إلى تاريخ الخلفاء العباسيين وما أفادوا الأدب بمقتوتهم
الشراء والكتاب ونظرنا إلى تنافس ملوك المسلمين في الشرق
والغرب في الاستكثار من الأدباء حولهم وتراحم ملوك الطوائف
في الأندلس على الاستئثار برجال الأدب — عرفنا كيف يُجدي
التحريض والمكافأة على الآداب . وحسبنا أن تذكر ازدحام الشراء
والأدباء حول سيف الدولة الحمداني حين رأوا فيه أميراً ألمياً وفني
عربياً يجزل الثواب ويسخو بالمال

هذه من أسباب تنوير الأدب . والباحث في الأدب العربي
يستطيع أن يتبينها في أطوار كثيرة منه ؛ فإذا بحثنا في صور
الأدب العربي في الجاهلية وما فعل بها الإسلام ، ثم نظرنا إلى
شعر الفتوح الإسلامية ، وشعر الوقائع العربية ، والمذاهب السياسية ،
وعصبيات العدنانيين والفتحانيين ، ثم عصبيات العرب والعجم ،
ومدائح الخلفاء والأمراء ، وتهاجي الشراء ، وما نشأ في الدولة
العباسية من ضروب في النثر والشعر وأثر اختلاط الأمم ، والترجمة
عن اللغات المختلفة ، وقرنا شعراء الشرق بشعراء مصر والغرب
والأندلس ، واستعرضنا بعض الحوادث السياسية والاجتماعية
في هذه المواطن ، ودرسنا تاريخ الناقلين المجددين ... الخ . وجدنا
في كل هذا تطبيقاً لا ذكر من مؤثرات الأدب

عبد الوهاب عزام